الفصل الأول

أوكيتانيا (جنوب فرنسا) Occitania

أوكيتانيا (جنوب فرنسا)

تختلف تمامًا فرنسا التى نعرفها اليوم من الناحية الجغرافية عن فرنسا فى القرون الوسطى. حيث إن اسم فرنسا آنذاك كان يشمل فقط المنطقة المحيطة بپاريس. وحتى ندرك مقدار صغر مساحة فرنسا آنذاك نقول إن أهالى مدينتى تولوز ومونپلييه فى الجنوب كانوا يتحدثون عن الرحيل إلى فرنسا أو إلى پاريس، الأمر الذى يدل على أن هاتين المدينتين كانتا فى العصور الوسطى لا تعتبران جزءًا من فرنسا. حتى الأراضى الواقعة فى شمال غرب فرنسا الحالية مثل بريتانى ونورماندى لم تخضع لسلطان فرنسا إلا فى القرنين السادس عشر والخامس عشر. ولكن من الخطأ أن نعتقد أن هذه المناطق الشمالية كانت منبتة الصلة بفرنسا؛ حيث إن الوشائج الثقافية جمعت بينها، الأمر الذى جعل توحيدها أمرًا ممكنًا.

غير أن حالة الجنوب (الفرنسى) كانت تختلف تمامًا وخاصة فى «أكويتين ـ Aquitaine» وتولوز، فاستقلاله عن فرنسا كاد أن يكون كاملًا. فضلًا عن اختلاف لغة الشمال عن لغة الجنوب الذى يستخدم لغة البروڤينسال أو لغة أوكيتانيا Occitania كما يحلو للدارسين أن يطلقوا عليها، وهى لغة أقرب إلى الإسپانية منها إلى الفرنسية لدرجة أن التاجر القادم من مدينة ناربون كان إذا ذهب إلى پاريس يحتاج إلى مترجم فى حين أنه يتفاهم بسهولة مع أهل برشلونة. وبالإضافة إلى ذلك كانت القوانين السائدة فى الجنوب تختلف عن قوانين پاريس والشمال.

وأيضًا اختلف أهل الشمال عن أهل الجنوب فى نقطة بالغة الأهمية، وهى أن مجتمعات الشمال كانت ريفية فى حين كانت مجتمعات الجنوب مدنية. ومن ثم كانت مدن الجنوب أكثر جنوحًا إلى الاستقلال من مدن الشمال التى غلب عليها الطابع الريفى، فعلى سبيل المثال فى عام ١٢٠٠ تخلى حاكم الجنوب كونت تولوز عن جميع سلطاته تقريبًا مانحًا إياها للقناصلة الذين تزعموا الطبقة البورجوازية التى أصبحت لها الغلبة على طبقة النبلاء، وقد شكَّل فرسان تولوز جانبًا كبيرًا من جيشهم لخوض غمار الحرب ضد أعدائها جنبًا إلى جنب مع المدنيين هناك. هذه القوة العسكرية التى جمعت بين الأرستقراط والأهالى فى تولوز وفى غيرها من البلدان ساعدتها على بسط نفوذها على الريف المجاور لها، وقد سعت تولوز قبيل عام ١٢٠٠ إلى الاستيلاء على

القلاع التى تهدد طرق تجارتها الأساسية، والتجأت من أجل تحقيق ذلك إلى إبرام التحالفات والمعاهدات وشن الحروب، تمامًا كما كان الإقطاعيون يفعلون إبان القرون الوسطى. أما الحال فى شمال فرنسا فقد كان مختلفًا؛ لأن الفرسان الأرستقراط أبوا الاختلاط بسكان المدن وآثروا الانفصال عنهم. وعلى أية حال ناصب فرسان الشمال فرسان الجنوب العداء.

ومن المعروف أن سكان الحضر أكثر انفتاحًا من سكان الريف، كما أنهم أكثر تسامحًا مع المتشككين وأكثر استعدادًا لاستيعابهم، وبسبب هذه السماحة لم يجد اليهود ممن يعيشون على ساحل البحر الأبيض المتوسط أية عوائق كبيرة تعترض سبيلهم، كما أن الهراطقة ـ رغم كثرة عددهم فى الجنوب فى القرن الثانى عشر ـ لم يجدوا أى تنكيل أو اضطهاد. ورغم تحيز الجنوب الفرنسى ضد المسلمين، فإنه اقتدى بعلم المسلمين وحضارتهم، بدليل أن مدينة مونپلييه سعت إلى الاستفادة من تقدم الطب عند المسلمين فى إنشاء مدرسة طب. كما أن شعر البروڤنسال تأثر بشعر شمال أفريقيا.

حتى اهتمامات الشمال الأدبية كانت مختلفة عن مثيلاتها فى الجنوب، ففى حين فضل الشمال الأدب الملحمى، فضل الجنوب الأدب الغنائى. ولكن كلًّا من الشمال والجنوب اشترك فى تقريظ الشجاعة فى حومة الوغى. ويمكننا أن نقول إن الشمال كان يحمل اسم فرنسا فى حين أن الجنوب المفتت من الناحية السياسية كان لا يحمل أى اسم بعينه وإن كان معروفًا باسم أوكيتانيا، التى لا تتحدث اللغة الفرنسية بل لغة خاصة بها يطلق عليها اسم الأوكيتانية. وأوكيتانيا هى الاسم القديم للجنوب الفرنسى، تحدها من الجنوب الغربى سلسلة جبال البيرنيز (البرانس) وتحدها من الشرق والشمال الشرقى هضبة كبيرة، كما يحدها غربًا خليج بسكاى المطل على المحيط الأطلسى وهى تضم فيما تضم بوردو، وتولوز. وفى القرن الثالث عشر بعد أن قام الشمال بغزو الجنوب أصبح جزء كبير من هذا الجنوب يسمى لانجيدوك ويشمل مقاطعات تولوز وكاركاسون وبيزييه وغيرها من المقاطعات مثل دوقية «أكويتين ـ Aquitaine». والجدير بالذكر أن إنجلترا احتلت دوقية أكويتين فى القرن الثانى عشر، فضلًا عن أنها كانت مطمعًا لملك أراجون الإسپانى. وبسبب تفتت أوكيتانيا السياسى لم يتمكن كونت تولوز من إحكام القبضة على مقاطعته. فعلى سبيل المثال كان حكم مدينة ناربون مقسمًا بين رئيس أساقفتها والڤايكونت.

وكما سبق أن أوضحنا فى مؤلفات سابقة، شجع النزاع المحتدم بين الكرسى الباباوى والحكام المحليين حول السلطة الزمنية على انتشار الهرطقات.

والجدير بالذكر أن الهرطقة لم تكن شائعة فى شمال فرنسا قدر شيوعها فى جنوبها؛ حيث إن الجنوب كان أقرب من الشمال إلى طرق التجارة المهمة التى تربط الشرق بالغرب، فضلًا عن قرب الجنوب الفرنسى من الهرطقات المتفشية فى شمال إيطاليا. وبطبيعة الحال ساعد الجنوب الفرنسى على الهرطقة فساد الإكليروس وتفشى الجهل بينهم. فبعض القساوسة كانوا أميين بالمعنى الحرفى للكلمة، والبعض الآخر لا يعرف من اللغة اللاتينية ما يؤهله لإقامة القداس، ناهيك عن إدمانهم الميسر والإفراط فى شرب الخمر ومضاجعة الجوارى والفتيات، والتكالب على جمع المال. وفى حين أظهر رؤساء الكنيسة فى شمال فرنسا شيئًا من الاستياء من هذا الفساد نرى أقرانهم فى الجنوب يغضون الطرف عنه. فلا غرو إذا شاهدنا البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) ينحى باللائمة على رئيس أساقفة ناربون ومعاونيه لجشعهم ولأنهم يعينون الفاسدين فى مناصب دينية نظير الرشاوى، فضلًا عن أن رئيس أساقفة ناربون تقاعس فى أداء مهام وظيفته إلى حد أنه لم يقم بزيارة أسقفيته طوال عشرة أعوام.

وبسبب استشراء الفساد وجد البابا إينوسنت الثالث نفسه مضطرًا إلى إيقاف أربعة كرادلة عن العمل، وهم رئيس أساقفة ناربون وأساقفة كل من تولوز وبيزييه وفيفييه. ولا ريب أن تفشى هذا الفساد الكنسى ساعد على انتشار الهرطقة لدرجة أن تولوز ـ وهى من أكبر وأغنى مدن أوكيتانيا ـ لم تجد أية غضاضة فى أن تختار حكامها وقناصلها من المهرطقين. وكثيرًا ما كان الهراطقة يجادلون رجال الكنيسة الكاثوليكية فى أمور الدين. ففى عام ١٢٠٧ نرى القديس دومينيك يستمع إلى مجادلات واحد من زعماء الهراطقة يجادل بأن الكنيسة الرومانية هى كنيسة الشيطان والدنس والزنا. وقد اجتاحت بلاد أوكيتانيا هرطقتان هما الهرطقة الكاثارية أو التطهيرية، والهرطقة الفالديسيانية اللتان عالجتهما بالتفصيل فى كتاب «الهرطقة فى الغرب» (دار سينا ـ الانتشار العربى ١٩٩٧). وتعرف الهرطقة الكاثارية بالهرطقة «الألبيجنسانية ـ Albigensian» نظرًا لانتشارها فى مدينة «ألبى ـ Albi» التى تبعد نحو خمسة وأربعين ميلًا شرق تولوز.

وإذا كانت كرادلة أوكيتانيا آثروا الوقوف مكتوفى الأيدى أمام ذيوع الهرطقة هناك، فإن كنيسة روما شعرت بالانزعاج الشديد من انتشارها. وفى عام ١١٤٥ تولى الخطيب المفوه «برنارد كليرڤو» رئاسة بعثة تبشيرية إلى أوكيتانيا لتحذير الكاثوليك من خطر الهرطقة وإرجاع الضالين إلى جادة الطريق. ورغم المنزلة العظيمة التى حظى بها هذا القديس فى الكنيسة الكاثوليكية، فإنه وجد نفسه عاجزًا عن أن يفعل شيئًا مع مهرطقى أوكيتانيا التى كادت

كنائسها تخلو من المصلين. وظلت كنيسة روما تتحلى بالصبر مع المهرطقين عدة عقود تجادلهم بالحسنى دون طائل. وفى عام ١١٧٨ أصدر المفوض الباباوى قرارًا بإدانة تاجر شديد الثراء فى تولوز يدعى پيير موراند كان على علاقة ودية بالمهرطقين ويتبع الهرطقة الكاثارية، ونبذ پيير موراند هرطقته وصدر حكم بإرساله إلى الأراضى المقدسة لمدة ثلاثة أعوام يقضيها فى التوبة والغفران. وحين عاد إلى بلاده اختاره أهالى تولوز واحدًا من قناصلها. ومعنى هذا أن الكنيسة الرومانية أخفقت فى ردع الهرطقة المتفشية فى أوكيتانيا الأمر الذى أصاب كنيسة روما باليأس وأثار ثائرتها، فقررت استخدام القوة لاستئصال شأفة الهرطقة. وفى عام ١٢٠٣ أرسلت كنيسة روما راهبًا فى طائفة السيستريان المشهورة بالزهد والتقوى يدعى پيير دى كاستلنو وبرفقته زميل من الطائفة نفسها لهداية المنطقة الموبوءة. ورغم حرص هذا المبعوث ورفيقه على إقرار النظام، فإنهما فشلا فى اقتلاع الهرطقة من جذورها. وفى عام ١٢٠٥ انضم إلى البعثة التبشيرية رجلان من إسپانيا هما الأسقف أوسما ومرءوسه دومينيك دى جوزمان. واتبع القديس دومينيك سياسة جديدة تتلخص فى انتهاج سياسة الفقر والاتضاع التى يتبعها الكاثاريون، غير أن نجاح هذه السياسة فى هداية المارقين على الكنيسة كان محدودًا واحتدمت مجادلات بين المهرطقين والمبشرين الكاثوليك فى جوٍّ من التسامح والحرية. وليس أدل على مدى الحرية التى تمتع بها المهرطقون من أنهم فى إحدى المجادلات نجحوا فى استفزاز القديس دومينيك واستثارة أعصابه فلجأ إلى التهديد باستخدام القوة معهم. وهكذا فشلت مجهودات الكنيسة الكاثوليكية التبشيرية فى الفترة من ١٢٠٣ حتى ١٢٠٧ فى هداية المهرطقين الذين جاهروا بإعجابهم بالهرطقة الكاثارية أو التطهيرية.

فكر البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١) فى أن يطلب من الحكام والأمراء شن هجمات على المهرطقين فى الداخل والخارج على حد سواء. وبطبيعة الحال كان الكرسى الباباوى آنذاك يعتبر المسلمين من المهرطقين. غير أن نجاحه فى هذا الشأن كان محدودًا، فقد نجح هذا البابا فى حثهم فى عام ١١٨١ على شن هجوم على مدينة لافور المهرطقة. ولكن جهود الحكام والأمراء للتصدى للهرطقة توقفت عند هذا الحد. والجدير بالذكر أن الباباوات فى القرن الثانى عشر كانوا بوجه عام عازفين عن استخدام القوة مع أعدائهم. حتى البابا ألكسندر الثالث نفسه أظهر نوعًا من الإحجام عن شن حرب صليبية ضد المهرطقين.

ولكن هذا الوضع تغير بحلول القرن الثالث عشر، فمنذ أن تولى البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) سدة البابوية، جنح الباباوات خلال القرن الثالث عشر إلى استخدام العنف

واللجوء إلى الحملات الصليبية للوقوف فى وجه المهرطقين والخارجين على الكنيسة مقابل منح صكوك الغفران للمحاربين. وإلى جانب هذا لم يتورع هؤلاء الباباوات عن قمع الحكام المناهضين لهم فى أراضى ألمانيا وجنوب إيطاليا، الأمر الذى أشاع الفوضى فيهما. واعتمد الباباوات على شمال فرنسا فى حشد الجيوش الصليبية. وكانت حملة إينوسنت الثالث الصليبية ضد المهرطقين فى أوكيتانيا المعروفة باسم الحروب الصليبية الألبيجنسيانية (نسبة إلى مدينة ألبى) هى أولى هذه الحروب وأوسعها نطاقًا. كثرت الحروب الصليبية التى شنها الكرسى البابوى على المهرطقين فى نهاية القرن الثانى عشر، وطوال القرن الثالث عشر، وفى الفترة من ١١٨٥ حتى ١٢٨٥ على وجه التحديد. ففى تلك الفترة لم يكد يمر عام واحد دون شن حرب صليبية ضد المهرطقين أو التفكير فى الإعداد لها.

ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن ذلك القرن هو قرن الحروب الصليبية فى الداخل والخارج على الهرطقة والمهرطقين. ففى الفترة من عام ١١٨٩ حتى ١١٩٣ نشبت الحرب الصليبية الثالثة، وتلتها الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤)، والخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١)، والحروب الصليبية التى شنها الإمبراطور فردريك الثانى على المهرطقين فى عام ١٢٢٨، ثم حرب «ثيبولد شامپانى» (١٢٣٩ ـ ١٢٤١)، وحرب القديس لويس (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ و١٢٧٠). والقرن الثالث عشر هو أيضًا القرن الذى شاهد الحروب الصليبية الألبيجنسيانية (فضلًا عن الحرب الصليبية ضد «هوهنستاوفن» (التى امتدت من عام ١٢٤٠ حتى ١٢٦٨)، وأخيرًا هناك الحرب الصليبية ضد أراجون (١٢٨٥)، التى أقنعت الجيش الفرنسى المشترك فيها بعدم جدوى مثل هذه الحروب.

وحتى ندرك مدى تحمس العائلات المالكة ـ الأرستقراطية للانخراط فى هذه الحروب من أجل الله وخدمة كنيسته والتصدى للمهرطقين والكفار، يكفى أن نقول إن خمسة ملوك متعاقبين قادوا بأنفسهم هذه الحملات الصليبية (وهم الملوك: لويس السابع، وفيليپ أغسطس، ولويس الثامن، ولويس التاسع، وفيليپ الثالث)، وقد لقى الملوك الثلاثة الأخيرون حتفهم فى هذه الحروب.

وكما أسلفنا عجز التبشير والحث عن إقناع زعماء أوكيتانيا أمثال ريموند السادس وكونت تولوز وكونت فوا وبالتحرك للقضاء على المهرطقين؛ حيث إن تصديهم للهرطقة كان سيُغرق البلاد فى حروب أهلية، وحيث إن كل عائلة كبيرة كانت تضم بعض المهرطقين. وعندما تلقى ريموند السادس كونت تولوز طلبًا من الكرسى البابوى بقمع الهرطقة والمهرطقين فى بلاده،

اكتفى بالردود المؤدبة التى لا طائل من ورائها، مؤكدًا أنه مؤمن بالعقيدة الكاثوليكية الحقة. غير أن هذه الردود المؤدبة وغير الفاعلة لم تشف غليل البابا إينوسنت الثالث الذى رأى فى الالتجاء إلى القوة حلًّا لمشكلة انتشار الهرطقة.

وفى عامى ١٢٠٤ و١٢٠٥ طلب هذا البابا من ملك فرنسا فيليب أغسطس مساعدته فى قمع الهرطقة فى مناطق الجنوب. حاول البابا حث الملك على قيادة حرب صليبية شاملة لاستئصال شأفة المهرطقين الكاثاريين فى أوكيتانيا، وأغرى البابا المقاتلين الصليبيين بالاستيلاء على أراضى وأملاك أمراء الجنوب الذين يوفرون الحماية للمهرطقين. ولكن هذا العرض لم يلق قبولًا أو استحسانًا لدى ملك فرنسا لأنه رأى أن هذه الأراضى ينبغى أن تؤول إلى رؤساء الإقطاع. وعلى أية حال اعتذر ملك فرنسا، فيليب أغسطس، عن عدم الاشتراك فى قمع الهرطقة المنتشرة فى جنوب فرنسا بأن قال إنه استنفد جهوده فى الانتصار على نورماندى وأنجو وانتزاعهما من يد الغزاة الإنجليز. وأيضًا طلب ملك فرنسا من البابا أن يحصل من ملك إنجلترا على تعهد بعدم العودة إلى احتلال هذه المناطق حتى يتفرغ للمهرطقين فى الجنوب ويتمكن من توجيه ضربة حاسمة إليهم. وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور البابا أن يضمن تصرفات ملك إنجلترا. وهكذا استطاع الملك فيليب أغسطس أن ينأى بنفسه عن الاشتراك فى أول حرب صليبية ألبيجنسانية. ورغم هذا فلا مناص من الاعتراف بأن ملوك فرنسا رغم خلافهم المتكرر مع الكرسى الباباوى كانوا أكثر ملوك أوروبا تحمسًا لتنظيم وشن الحملات الصليبية فى الداخل والخارج.

وفى عام ١٢٠٧ قام المفوض الباباوى پيير دى كاستلنو بفرض الحظر الكنسى على كونت تولوز ريموند السادس، وكذلك فرض الحظر على ممتلكاته. ويرجع السبب فى هذا إلى أن هذا الكونت جرَّد الكرادلة من ممتلكاتهم إلى جانب توفيره الحماية للمهرطقين. وأيد البابا إينوسنت الثالث فى خطاب سطره بتاريخ ٢٩ مايو ١٢٠٧ الإجراء الذى اتخذه مفوضه پيير. وكذلك هدد البابا فى هذا الخطاب كونت تولوز بحشد أمراء الممالك الأخرى لتطهير تولوز من دنس الهرطقة. ونفذ البابا تهديده بأن ناشد ملك فرنسا فيليب أغسطس بسرعة التدخل لقمع الهرطقة فى الجنوب.

ومن جانبه حاول ريموند السادس السعى لدى إينوسنت الثالث لرفع الحظر الكنسى عنه كما اعتاد أمثاله من الأمراء أن يفعلوا. ولكن البابا رفض رفضًا قاطعًا رغم اجتماعه مرتين بكونت تولوز. وانتهت مقابلتهما الثانية فى يناير ١٢٠٨ بمشادة كلامية. يقول البابا إن الكونت

ريموند وجه على إثرها إنذارًا إلى كل الكرادلة بوضعهم تحت رقابته الصارمة. وفى يوم ١٤ يناير من ذلك العام اغتيل پيير دى كاستلنو وهو يستعد لعبور نهر الرون دون أن يكون لريموند السادس يد فى اغتياله. حتى البابا نفسه لم يتوفر لديه أى دليل على تورطه فى هذا الاغتيال بل كانت لديه مجرد ظنون. ورغم ذلك فقد قرر الكرسى الباباوى حشد جيش صليبى للزحف من الشمال الفرنسى على تولوز للقضاء المبرم على الهرطقة المستشرية فيها. وحتى يغرى الفرنسيين بالانضمام إلى هذا الجيش وعدهم بغفران الخطايا. وقد أسندت قيادة الجيش من الناحية الشكلية إلى المفوض الباباوى أرنود أمورى، فى حين إن القيادة الفعلية دانت لدوق بورجندى وأحد النبلاء الآخرين، ثم برز فى ساحة القتال البارون سيمون قائد مونتفورت. غير أنهم لم يكونوا من الناحية العسكرية على المستوى اللائق، الأمر الذى أعاق دحر المهرطقين وإحراز النصر عليهم.

* * *